تحت سلطة الطاعون

علي الصراف
كاتب عراقي

صحيح أن إبراهيم رئيسي لم يُنتخب إلا بأقل من 4 في المئة من مجموع الناخبين في إيران، إلا أن تنصيب جلاد على رأس دولة تضم 80 مليون نسمة أمر لا بد أن يثير مشاعر صدمة عميقة ليس في قلوبهم وحدهم، وإنما في قلوب مئات الملايين ممن حولهم.

الكثير من التقديرات والتحليلات يمكن أن تُقدم لتفسير لماذا يحتاج مجرم مثل علي خامنئي أن يستعين بخدمات مجرم آخر للسيطرة على بلد لم يكف عن الانتفاض ضد فشله وتسلطه وأعمال عصاباته داخل إيران وخارجها. إلا أن أكثرها جلاء هو أن البلاد تقف على شفير هاوية لا أحد يعرف ما هو قرارها بعد، وأنه يريد أن يسيطر على عوامل الانهيار بالمزيد منها.

الإيرانيون، بقومياتهم المختلفة، شعب صبور. لقد عاشوا دهورا طويلة تحت أنظمة ظلم وطغيان، وتوارثوا صورا شتى من مظاهر الوحشية، وتلال الجماجم، منذ أن أجبرهم إسماعيل شاه الصفوي على أن يتنكروا للإسلام لكي يصبحوا "شيعة"، إلى يوم الناس هذا، حيث صار يتوجب عليهم أن يتنكروا لحقهم في الحياة، لصالح مشروع ثوري ينهض به رعاع وفاسدون ودجالون من أمثال قادة الحوثي في اليمن والحشد الشعبي في العراق وحزب الله في لبنان، والشبيحة في سوريا.

الانحطاط الذي يمثله هؤلاء صادم بحد ذاته. ليس لأنه ينزل باللغة إلى دركها الأسفل، بل لأنه ينزل بكل أنماط القيم والمفاهيم وأنظمة الإدارة والسياسة والاقتصاد إلى مصاف لا علاقة له بأي منطق.

هل جربت أن تجد نفسك وسط حفنة من الحثالة الذين يصخبون بمشاعر متضاربة ولا يتوقفون عن الهذيان ويلوحون ضدك بالسكاكين، وأنت تحاول أن تقنعهم بأن الصعلكة في دولة الهرج والمرج لا تفيدهم حتى هم أنفسهم؟

سوف تدرك من دون أدنى شك، أنك تهبط عليهم من عالم آخر. وأن كل ما قد تقوله غير مفهوم، وأن النتيجة تظل هي نفسها، من ناحية الخراب الذي لا يرونه خرابا، ومن ناحية الأذى والمرارة التي تصيب ملايين البشر من جراء تصرفاتهم الهوجاء، ومن جراء عجزهم عن رؤية المستنقع العفن الذي يسبحون فيه.

هم ليسوا لصوصا فقط. إنهم قتلة لا يرعوون شيئا من حياة البشر، ولا يقيمون لها قيمة، وكل شيء لديهم سواء.

هؤلاء هم جيش الولي الفقيه، في إيران وفي غيرها، ويقودهم الآن جلاد لا تشكل حياة البشر بالنسبة إليه أي شيء ذي معنى على الإطلاق.

هذا هو حال إيران وهو ذاته حال العراق ولبنان واليمن وسوريا. الطاعون هناك يسحق كل شيء ويصيب بذلك النوع من الصدمة التي تجعل فمك فاغرا لا يقدر حتى على النطق بكلمة

هل دفع رئيسي بيديه عشرات الآلاف من شباب إيران إلى الموت تحت التعذيب أو على حبال المشانق؟

نعم، وماذا بعد؟ إنه يؤمن تماما بأن ما فعله لم يكن مجزرة. وهو يعيش أيامه مرتاح البال تماما. لا يلاحقه قلق، ولا تقض مضجعه أشباح تلك الأرواح التي أزهقت في العام 1988، ولا تلك الأرواح التي ظلت تُزهق على أيدي الحرس الثوري مع كل انتفاضة تندلع ضد النظام.

أحد أعجب المفارقات، هي أن وليه الفقيه، مباشرة بعد مجزرة العام 2019، التي أدت إلى مقتل نحو ألفي متظاهر في ليلة واحدة بطلب مباشر منه لسحق التظاهرات بأي ثمن، جلس مع حفنة من واضعي عمائم الخسّة على رؤوسهم، ليتباكى على الذين قتلهم سافاك النظام السابق في إحدى التظاهرات.

لم تسقط من جبينه قطرة حياء. وعمائم الخسّة لم تجر مقارنة بين المجزرتين. والحرس الثوري لم يلتفت أبدا إلى حقيقة أنه ارتكب ضد الإيرانيين أكثر بكثير مما ارتكب السافاك.

إنه شيء يشبه الطاعون الذي تعجز الإرادة البشرية عن مواجهته، لتتركه يفعل فعله حتى ينقضي الأمر، بواقع الآليات الطبيعية لكل بلاء.

حثالة الولي الفقيه في العراق لا يترددون في أن يثبتوا أنهم "سرسرية" فحسب. (لأن الوصف: "ملكيون أكثر من الملك"، كثير عليهم، من ناحية اللغة، والمعنى، والمقام). فهم يبعثون برسائل لإيران تقول "انتم ما لكم علاقة. نحن نضرب القوات الأميركية بمحض انحطاطنا الخاص، وبمحض ما نملك من الحق في ممارسة الفوضى، ولأننا أتباع من قاع الدست في سفائل المسالك".

رسالة تلو أخرى، أراد قادة الحشد الشعبي أن يقولوا إنهم "كولائيين" حتى العظم مستعدون لتحمل الضرب نيابة عن إيران، وأنهم مستعدون لكي يتسببوا في المزيد من الفوضى والمزيد من الإهانات للدولة التي يعيشون فيها، لمجرد أنهم كمثل تلك الحفنة من الحثالة التي لا تفهم شيئا، وهي تلوح بالسكاكين، إلا غرائزها.

هذا المستوى نفسه من الولائية هو الذي يدفع لبنان إلى الهاوية. وهو نفسه الذي يجعل جماعات الحوثي، يواصلون الحرب ويرفضون الحوار والتسوية. والكل يصخب بالشعارات ولا يتوقف عن الهذيان وسكاكينه تجز الرقاب بعد الرقاب.

لا حلول تنفع مع هذا الطاعون ولا خيارات ولا حوار ولا تسويات، ولا حتى أي لغة للتخاطب. لأنك إذ تنطق، سرعان ما سوف تشعر أنك كمن يهبط من كوكب آخر. وهم إذ ينطقون، فهم كمن يخرج من قاع العالم السفلي، ليؤكدوا أنهم من جنس "يأجوج ومأجوج" الذي ظل وجودهم لغزا.

فإذا شككت بذلك، فماذا تريد دليلا عليهم أكثر مما يفعلون؟

وطاعونهم ليس كأي طاعون. إنهم موت يسري في البلد لكي يهدم مقومات بقائه، ويسري في المجتمع لكي يمزّق أواصره ويهدم مقومات حياته، ويسري في النفوس لكي يهدم كل ما يتجاوز مشاعر النجاة بالنفس لتبقى ولو بأقذر وسائل الرذيلة والفساد، بما أنها صارت هي "القيم البديلة" السائدة.

هذا هو حال إيران. وهو ذاته حال العراق، ولبنان، واليمن، وسوريا. الطاعون هناك يسحق كل شيء ويقضي حتى على المشاعر، ويصيب بذلك النوع من الصدمة التي تجعل فمك فاغرا لا يقدر حتى على النطق بكلمة.

الجوع والمرض والفشل المؤسسي وانهيار منظومات الإدارة في لبنان قد تدفع الكثير ممن ينظرون إلى هذا البلد من الخارج إلى تقديم وسائل العون والإنقاذ والنجدة، إلا أن عزائمهم لا تُفهم، ولا يُصغى إليها، وتُقابل باستهتار وكأنها تتعلق ببلد آخر.

مقدمو المساعدات إنما ينظرون إلى "صورة" لبنان في أنفسهم، أو إلى تصورهم الخاص عنه. إلا أنها ليست الصورة التي يراها حزب الولي الفقيه. هناك لبنان آخر. وحتى ولو بدا وكأنه غارق في الجحيم، أو في الطاعون، فإن وجوده على هذه الصورة، ليس مما يعني أحدا، طالما أنه جزء من المشروع الثوري الذي يفرضه "سلاح المقاومة".

رئيسي لم يأت رئيسا لكي يتخلى عن رعاعه. ولن يسمح لأي اتفاق بشأن الملف النووي بأن يضع حدا لبيئة الفساد والخراب والفوضى التي يسطون بها على بلدانهم. وحتى لو أجبرته الضغوط، فإن سلطة الطاعون سوف تبقى هي القوة التي تدفع هذه البلدان، وإيران نفسها، إلى أن يبقى كل منها في عالمه السفلي، حيث تنهار القيم والثقافة والتعليم ومنظومات الإدارة، بل وحتى لغة التخاطب نفسها.

ولا خلاص، حتى يقضي الطاعون أمره، بواقع آلياته الطبيعية فحسب.

الإمارات والسعودية: قصص صحافية مثيرة

د. سالم الكتبي
كاتب إماراتي

قصص صحافية عديدة مثيرة تابعتها الأيام الماضية حول "خلافات" و"توترات" و"أزمة صامتة" تخيّم على فضاء العلاقات الإماراتية – السعودية، وهي قصص يصعب على أي مراقب للشأن الخليجي تجاهلها حتى وإن كانت غير دقيقة ولا تعبر عن الواقع الفعلي لعلاقات البلدين الشقيقين، خصوصا أن هذه التقارير تثير نقاطا عدة للنقاش في مقدمتها مساحات التطابق والاختلاف في وجهات نظر الدول مهما كانت مستويات تقاربها الاستراتيجي.

العلاقات الدولية المعاصرة لم تعد تحتمل العبارة التقليدية المكررة التي طالما تزيّنت بها البيانات الرسمية الصادرة عن أي اجتماعات تعقد على مستويات رفيعة بين الدول العربية أو الخليجية، وهي العبارة التي تؤكد على "التطابق التام في وجهات نظر البلدين"؛ فالحقيقة أن هذا التطابق المزعوم لم يعد قائما بحكم تعقد وتشابك وتداخل المصالح الاستراتيجية للدول، وبما يجعل من فكرة التماهي التام بين هذه المصالح مجرد فكرة عبثية لا اعتقد أنها قابلة للتحقق، بل لا اعتقد كذلك أنها كانت محققة في الماضي من الأساس، أو على الأقل بدرجة 100 في المئة وفقا لما توحي به كلمة "التام" من معان!

التاريخ يشهد أن التباينات الاقتصادية تحدث أحياناً ولكنها لا تُحدث قطيعة لأن هناك تفاهما على أن المصالح التي تربط البلدين أكبر من أي اختلاف في وجهات النظر

هناك تجارب ثرية للدبلوماسيتين الإماراتية والسعودية تعكس تخلصهما من بعض موروثات الماضي وتعاملاتهما مع الحقائق والواقع بشكل أكثر شفافية ومكاشفة ليس فقط لأنه بات من الصعب إخفاء الحقائق وإبقاء أي خلافات مهما كانت صغيرة وراء الكواليس، ولكن لأن الدبلوماسية باتت تعمل وفق آليات تناسب عصرها، ولا ترى في الحديث عن تباينات أو حتى خلافات في وجهات النظر مسألة كارثية تقلل من قوة ومتانة العلاقات الثنائية بين أي دولتين، لاسيما إذا كانت هذه العلاقات تتكئ على روابط وركائز ومصالح واتفاقيات شراكة استراتيجية مدروسة تفوق في قوتها بمراحل أي أثر محتمل لخلاف عابر في وجهات النظر حول هذه أو تلك من القضايا والموضوعات المشتركة.

بالطبع، لا أقصد بهذه المقدمة الإقرار بوجود أي خلاف في العلاقات الإماراتية – السعودية، سواء لأن موقعي كمراقب لا يسمح لي بتأكيد أو نفي مثل هذه التكهنات والتقارير، بالإضافة إلى أن التركيز على التقارير القائلة بوجود مثل هذا الخلاف من جانب وسائل إعلام معيّنة ومعروفة الاتجاهات والتوجهات بما يكشف عن محاولات حثيثة للنفخ في نار الوقيعة والسعي لإشعال فتنة بين دولتين شقيقتين طالما كان التحالف بينهما طوق إنقاذ لأزمات منطقتنا العربية في السنوات الأخيرة، وفي عالم السياسة يدرك الجميع أن تفكيك التحالفات بين "الاطفائيين" في منطقة ما تعاني انتشارا لنيران الأزمات هو أحد أهداف مشعلي الحرائق وناشري الفتن.

وإذا كانت بعض وسائل الإعلام قد ذهبت إلى حد الزعم بوجود تباعد في المصالح الاستراتيجية بين دولة الإمارات والمملكة العربية السعودية، على خلفية تباين وجهات النظر حول قضايا وملفات مثل إنتاج النفط واليمن والتطبيع مع إسرائيل وحتى طريقة التعامل مع جائحة كورونا، فإن النظر بموضوعية إلى ما يحدث لا يدع مجالا للتفسير والتحليل لأنه ـ على سبيل المثال ـ مسألة مثل قوائم الدول الخاصة بالسفر خلال فترات تفشي الجائحة تشهد تغيرات سريعة وطبيعية بحكم إدراك كل دولة للأوضاع الصحية داخلها وخارجها، وبالتالي هي قرارات مهنية لا علاقة لها بالسياسة على الأقل في منطقتنا، التي لا تشهد صراعات قطبية بين الكبار كما هو الحال بين الصين والولايات المتحدة مثلا!

الواضح أن "الشرارة" التي أطلقت العنان لتقارير إعلامية كثيرة تروج لفكرة الخلاف بين الدولتين هي تباين وجهتي نظر البلدين حيال اتفاق منظمة "أوبك" بشأن الحصص الإنتاجية للدول الأعضاء، حيث وفر هذا الموقف فرصة لبناء "قصة إخبارية" أضيفت إليها بعناية بعض "التوابل" الأخرى مثل موقف البلدين في اليمن، والعلاقة مع إيران، بدعوى أن الإمارات تتبنى موقفا أكثر انفتاحا تجاه إيران، رغم أن الشواهد الرسمية تشير إلى أن الرياض وطهران قد أقرتا رسميا بوجود محادثات استكشافية بينهما!

والحقيقة أنه يصعب الإمساك بكل ملف من الملفات التي يضعها البعض داخل دائرة "الخلاف" بين الرياض وأبوظبي ومناقشة ما يثار بشأنه بموضوعية غائبة من الأساس في مثل هذه النقاشات العبثية التي لا تستند إلى معلومات بقدر ما تهدف إلى الترويج لقصص إخبارية مثيرة بشكل تقف وراءه دوافع مهنية تنافسية أحيانا ونوايا سيئة في أغلب الأحيان!

المؤكد في الأمر كله أن الدبلوماسيتين الإماراتية والسعودية، اكتسبتا مرونة وديناميكية كبيرة في السنوات الأخيرة، وبات بإمكانهما الاحتفاظ بخصوصية العلاقات الأخوية والشراكة الاستراتيجية القائمة بمعزل عن أي متغيرات تكتيكية عابرة قد يعتقد البعض أنها ستؤثر حتما في أجواء العلاقات، وبمعنى آخر، لم تعد علاقات البلدين تتقدم أو تتأخر بفعل موقف ما أو تحرك عابر هنا أو هناك لأن هناك اتفاقا مسبقا حول الأطر الاستراتيجية الحاكمة لعلاقات البلدين الشقيقين، بحيث لم يعد الأمر متروكا للظروف وتقلبات السياسة.

والحقيقة كذلك أنه في ظل الطموح التنموي الهائل للاقتصادين الإماراتي والسعودي، من الوارد أن تلتقي المصالح ومن الوارد كذلك أن تتضارب، وهذا أمر بديهي في العلاقات الدولية المعاصرة، ويمكن أن يتم تجاوزه بالنقاشات، ولكن من الصعب أن يخلط البعض في تفسير مثل هذه المواقف ويربط بين السياسي والاقتصادي والعسكري وغير ذلك.

وللمصداقية فإن التاريخ القريب يشهد بأن التباينات خصوصا الاقتصادية قد تحدث أحيانا بين الرياض وأبوظبي ولكنها لا تُحدث قطيعة بين البلدين، لأن هناك تفاهما على أن مصالح البلدين والشعبين الشقيقين أكبر من أي اختلاف في وجهات النظر، لاسيما بعد اختلاط دماء الشهداء على أرض اليمن الشقيق دفاعا عن أمن واستقرار ومصالح جميع شعوب دول مجلس التعاون، فلا شك أن ما ربط البلدين والشعبين في السنوات الأخيرة يزيد علاقاتها رسوخا ومتانة وثباتا بغض النظر عما قد يراه الآخرون محطة للقطيعة والشقاق.

الإماراتي سيبقى سعوديا والسعودي سيبقى إماراتيا لأن هذا هو الرباط الفعلي الأقدس وهو الحصن الحصين الذي يتجاوز الحسابات التقليدية في النظر إلى العلاقات الثنائية بين الدول والشعوب.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk